## الفصل الثاني: البناء الفني للقص

**(يهتم هذا الفصل بالبحث في أثر الصورة الفنية، وبلاغة القص القرآني، وروعة البناء القصصي في سورة يوسف عليه السلام، والتفسير المقاصدي للسورة على وجه الإجمال، والإفادة من إسهامات بعض المفسرين، والوظيفة المرجعية لبنية القص في سورة يوسف، وعناصر البناء القصصي في السورة...).**

في البدء.. أن ترى يعني أن تختصر، هذا هو المدخل الاستدلالي للنظر في قصة نبي الله يوسف عليه السلام، والذي اختص الحكي عنه بسورة كاملة مترابطة في القرآن الكريم.

ويعمد أغلب الدارسين عند النظر في الكتاب الكريم إلى استجلاء التوثيق من كتب التفسير والحديث، بداية من ابن كثير رحمه الله، وصولًا إلى التجليات الخاصة المنزلة على بعض الدارسين الذين عايشوا الذكر الحكيم المنزل وعاشوا له.

إن منطلقنا هو ضرورة تأسيس منهج تفسيري يفيد من نظريات تحليل الخطاب عن طريق منهجية تقوم على مفهوم التفكير الشبكي المنظومي القائم على فكرة العلاقات الحية المتشابكة المتداخلة، لا التفكير العلمي الجزئي القائم على البنية المستقرة المنعزلة، وشتان بين منهجية التفكير الشبكي البيني الحي، ومنهجية التفكير البنائي الأحادي المغلق كما شاع بين المذاهب التفسيرية المعتادة الراسخة في موروثنا التفسيري، فالتفكير الشبكي قائم على فكرة الكل الدينامي الحيوي، لا فكرة العنصر الجزئي المنعزل المستقل، وفي التفكير الشبكي المنظومي systematic يتخذ العنصر الجزئي قيمته من الكل الدينامي الحيوي

وليس العكس، كما يغتذى الكل بالجزء بنفس اغتذاء الجزء بالكل في حركة جدلية تطورية تركيبية تفاعلية خلاقة، كما نجد منظمة التفكير تتجاوز فكرتي: الصحة والخطأ الغليظتين في الفهم؛ وما تؤسسانه من إقصاء ونبذ ونفي للأفكار الأخرى، إلى قوة الحقيقة العلمية العملية التشعبية الترابطية الحية الملتحمة بفقه الواقع، وما يتطلبه من قابلية الفكر للتحقيق العملي الفعلي من عدمه، كما أن منظومة التفكير الشبكي البيني الحي تسلم بمنطق الحركة المتعددة المتنامية فلا تقنع بمجرد فكرة البنية الثابتة المستقرة، فحركة الشيء ومقاصده الكلية هي الموجه، والمنطلق وليس مجرد تركيبه الجزئي المنعزل، وبنيته العلمية القارة المعتادة بين الناس، إذ دائمًا ما يكسر الواقع هذه البنية فيغير عليها بالتجديد المستمر فيغيرها على الدوام، وعلى حين يتخذ الفكر العلمي الخطي الأحادي المنعزل من فكرة البنية مستقرًا وهدفًا، يتخذ الفكر العلمي الشبكي المنظومي من الفكر البيني التداخلي الحي هدفًا معقدًا متكاملًا، يقع فيها الفهم والتفسير والتأويل ضمن شبكة مجالات معرفية ومنهجية متسعة من العلاقات التفسيرية البيانية والبرهانية والعرفانية البينية المتداخلة، فاتحة الآفاق على إمكان تجدد المعرفة، وليس مجرد الإقرار بالمعرفة، حيث الحقيقة القرآنية تقع برأينا في المجال الاستفهامي الإنشائي الواسع المترامي، لا الحيز الخبري التاريخي الضيق، إن منهجية القرآن في الواقع تقوم على التفاعل والتعدد والتداخل الدينامي الحي الفعال في علاقاتها الكثيفة بكل شيء في هذه الحياة، حيث يلتحم فقه النظر بفقه الواقع بفقه إنزال النظر على الواقع ضمن لحظة عقلية واحدة، فالمعرفة القرآنية معرفة رحبة متعددة متكاملة مترامية مفتوحة على الماضي والحاضر والمستقبل دفعة واحدة، فالقرآن الكريم في كل توجهاته يحض على الربط بين وجوه كثيرة من وجوده المعرفة العلمية والتاريخية واللغوية والبيانية والبرهانية والعرفانية المرتبطة بالحقيقة الإنسانية والوجودية والإيمانية اللامتناهية، حيث يصير الفهم التحقيلي الكثيف هو الموازي لقوة الأشياء الحية في الوجود، ومن

هنا فسوف نتخذ من فكرة التفكر الشبكي البيني المنظومي القائم على فكرة التشعبية والبينية والتداخلية منطلقًا منهجيًا جديدًا لإعادة بناء علم التفسير القرآنى حيث الوعي والفهم شبكة مفتوحة متسعة من العلاقات والإمكانات والاحتمالات والتداخلات القائمة على السيرورة والفاعلية والشبكية والبينية. حقًا إن القرآن العظيم نزل في مكان وزمان تاريخيين محددين لكنه يتجاوز الأزمنة والأمكنة جميعًا، فالقرآن العظيم محلي وعالمي، وخاص وعام، ودنيوي وآخروي ، وواقعي ومثالي، وماضي وحاضر ومستقبل دفعة واحدة وفي لحظة عقلية واحدة، ووفق منظمة معرفية شبكية تداخلية تفاعلية. وحتى نتحقق من هذا الفكر الشبكي المنظومي الجديد لابد من إحداث طفرة ثورية جديدة في الوعى والفهم والممارسة والفعل.[١]

وفي هذا البحث الذي وضعنا له عنوانا فضفاضا بعض الشيء، نجلي أيضًا أهمية الصورة في صناعة الحدث، وبنية الاختزال اللغوي والتداخل الحركي والصورة الشعرية الناطقة، فالبحث إذا في الصورة الأدبية ودورها في الثقافة والوعي والاتصال عبر آلتي المرسل والمتلقي، فالصورة مهما كانت طريقتها، لها واقع تحكيه، و إذا كان اختيار الكلمات يتضمن اختيار الموقف، واختيار نوع من التركيب الذهني الذي يشاهد من خلاله أو يستوعب بواسطته أو يفسر بالرجوع إليه، فإنها بأجناسها المختلفة موقف أيضا[٢]. إننا عندما ندرس أثر الصورة، في نظريات الاتصال والإعلام والتربية جميعا نرى عناية بدراسة العلاقة بين الصورة واستيعاب المعلومات في وقت لوحظ أن استيعاب الفرد للمعلومات يزداد بنسبة ٣٥٪ عند استخدام الصوت والصورة في آن معا، وأن الاحتفاظ بهذه المعلومات في الذاكرة وفقًا لذلك يطول بنسبة ٥٥٪. فليست الصورة انفعالا فحسب، بل

(١) محمد عبد الباسط: النص والخطاب. قراءة في علوم القرآن . الهيئة العامة لقصور الثقافة والنص من مقدمة د/أيمن تعليب، ص ٢٧ -٢٨ ، ٢٠١٥.

(٢) كورك، جاكوب: اللغة في الأدب الحديث، ترجمة ليون يوسف. دار المأمون للترجمة والنشر، بغداد، ١٩٨٩. ص ٩٣، وانظر أيضا د/ محمد العبد: النص الخطاب والاتصال، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، ٢٠٠٥، ص ٣٤٢.

للصورة جوانب عدة منها هذا الجانب التذكيري، ولعل هذا يفسر لنا لماذا لا تدخر الدعاية السياسية والتجارية وسعًا في اللجوء إلى سلطة الصورة. نعم، للصورة سلطة في التواصل الجمالي والتواصل التداولي جميعا. للصورة سلطة التأثير الجمالي التبليغي مع الصورة الفنية ذات الدلالات المتعددة. وللصورة سلطة تغيير السلوك والواقع فيما يسمى بالصورة الوظيفية ذات الطبيعة البرجماتية التي يمكن أن نراها في تسلح بعض الأنظمة باستراتيجية الصورة في فرض هيمنتها، والتأثير في سلوك الجماهير وعقولهم. يمكن أن نرى ذلك أيضا فيما يسمى بحرب الصورة الهزلية في الدعاية السياسية المضادة على صفحات الصحف اليومية.[١]

إن الفنان أو الشاعر ينظر إليه باعتباره محررًا للحواس، ومشتغلًا على كل قنوات الاتصال الممكنة، يحرر الحواس بالإيقاع والصورة، وكذلك النصوص التراثية التي نالت حظًّا وافرًا من الدراسة والتمحيص، لا تستغني في تجلياتها التواصلية عن العزف على تحريك الحواس والمشاعر ودراسة الصور الحركية والصوتية وصولًا إلى اتصال ناجح وفعال.

والحق إن كل شيء يريد بطريقته أن يتحول إلى صورة، حتى اللغة تجعل من الأصوات والحروف صورًا، الأصوات تقلد ما تعنيه كأنها صور تعبيرية. وانظر في العربية إلى الوشوشة، والهمهمة، والقهقهة، و نحوها.. وقد بات معروفا ما جعلته الشعرية العربية المعاصرة للعلامات اللغوية من فضاء بصري تشكيلي، حيث تحولت الأسطر في القصيدة من معطيات لغوية بصرية مجردة ممنوحة للقراءة إلى معطيات تشكيلية، وجدت لتشاهد من حيث هي علامات بصرية دالة في تشكيلاتها المثلثة والمربعة والدائرية والحلقية والحلزونية.... إلخ[٢].

(١) النص والخطاب والاتصال، ص ٣٤٣.

(٢) الماكري ، محمد: الشكل والخطاب، مدخل لتحليل ظاهراتي. المركز الثقافي العربي. بيروت، ص ٢٤٢.

والسؤال: ما الوسائل التصويرية الممنوحة لدنيا في سورة يوسف عليه السلام، وبمعنى آخر ما الوسائل فوق اللغوية التي استعانت بها سورة يوسف في التعبير عن أحداث قصة هذا النبي العظيم؟

هناك الصورة الفنية بألوانها المتعددة؛ الحركية والصوتية واللونية، وهناك السلوكيات الحركية، وهناك الرموز والعلامات الضوئية، وهناك الصفات وتحديدات الأوضاع والحالات، وكلها حالات يعتمد عليها الاتصال الكتابي اعتمادا كبيرا.

الصورة إذن إجراء واع يعوض به الاتصال الأدبي تفاصيل العالم التجريبي في الاتصال الشفهي العادي، وإذا كان للاتصال المنطوق الأسبقية في تاريخ الجنس والنمو والتطور، والأسبقية الوظيفية، إلا أن النصوص المكتوبة تبقي الوسيلة الأهم للنشاطات الأدبية والثقافية.

ومن الجائز في هذا الإطار قبل الدخول إلى سورة يوسف بالتحليل والقراءة أن نبرهن على أن الآلية المتبعة في هذا النحو، هي الآلية نفسها التي نظر بها بعض الدارسين إلى نماذج شعرية وروائية حديثة[1] بيد أن هذه الإسهامات تبرهن دون أن تبالغ في استبدال معايير تقويم فن بمعايير تقويم فن آخر، وأن تحليل الصورة من المنظور اللغوي الجمالي التقليدي وحده سوف يشهد على تقليدية النظر النقدي أمام منجزات الدراسات العربية المعاصرة.

خلاصة ما أعنيه بالتأكيد أن القرآن الكريم له سمت خاص، وطرق مختلفة في النظر والمقاربة، هو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو المنزل بلفظه على النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ما اعتراه حيف ولا تبديل ولا تغيير، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحِجر:٩]،

(١) صلاح فضل، أساليب الشعرية المعاصرة، الهيئة العامة، لقصور الثقافة. ١٩٩٦، ص ٨٢ – ٨٣، وانظر أيضا مصطفى ناصف: ثقافتنا والشعر المعاصر. الهيئة العامة للكتاب، ٢٠٠٠، ص ٤.

وأمام قدسية القرآن يصبح تناول بعض آياته محفوفًا بالمخاطر موسومًا بالنقص في حدود رؤية المخاطب الذي يرى أن القرآن الكريم محكوم بغائية رسالته بوصفها هداية للعالمين، كل العالمين، أي أنها ذات طابع أخلاقي اجتماعي عام، تروم التأثير في متلقيها بما يجعله ينتبه لها، بل و يؤمن بها ، و يعمل وفقًا لما تأمر به . وبناء على ذلك فإنَّ كُلَّ دالٍ مُخْتَار يصبُّ في هذا الهدف، الآن ومستقبلًا ، وهذا يقتضي أن يُقْرَن الإخبارُ دائمًا بالتأثير، أي أن تتجاور في هذه الرسالة طاقتا الكلام : الإخبار والإيحاء.

و إذا كانت اختيارات أيِّ نص تعمل على توظيف كُلِّ المنبهات التي تشدُّه برباطٍ عضوي إلى إرضاء مقتضياتها (المنبهات) في الشَّحن والإبلاغ، ثم إنَّه يُحَمِّل رسالته اللسانية دلالات بالتصريح أو بالتضمين، رابطًا بذلك محتويات الخطاب ببصماته التأثيرية بمن يتلقاه، و إذا كان ذلك من لوازم أي نص إبداعيٍّ فلاشك إنَّه مع نص إلهيٍّ معجزٍ، يتحدى بنظمه مخاطبيه أوْلَى، وهذا ما جعل اختياراته وطريقة توزيعها جوهرَ هذا الإبداع المعجز بالنسبة لباحث في الأسلوب على أقل تقدير.[١]

وفي هذا السياق أيضًا نشير إلى أن الإجراءات السردية للخطاب السردي تنسجم مع المنطق السردي وروائع الإبداع، وعن طريقها يصل الدارس إلى رصد ملامح الخطاب السردي، غير أن السرد في الخطاب القرآني يختلف عن السرد في الخطاب الأدبي، فمصدرية السرد في الخطاب القرآني من الله تعالى جلت قدرته وتهدف إلى الكشف عن عقيدة التوحيد للمتلقي، بينما مصدرية السرد في الخطاب السردي الأدبي تنبثق من الذات الإنسانية وأحاسيسها ومشاعرها من خلال صور الإبداع[٢]، فالقرآن ليس بكتاب قصص، بل كتاب دعوة وتشريع،

(١) د. محمد عبد الباسط عيد : النص والخطاب ، ص ١٩٧ والاقتباس بين القوسين د/ عبد السلام المسدى الأسلوبية والأسلوب، ص ٧٧.

(٢) بنية الخطاب السردي في سورة يوسف، د/ دفة بلقاسم، من أبحاث الملتقي الوطني الرابع بعنوان ( السيمياء والنص الأدبي) أبحاث منشورة ص ٦٠.

و إن وردت فيه بعض قصص الأمم السابقة، فإنما في سياق الدعوة إلى الإيمان والتوحيد. ومن هنا ينبغي أن يكون النظر إلى القصة القرآنية مختلفا عن القصة الأدبية. إذ القصة القرآنية ليست للتذوق الأدبي أو للمتعة، بل هي فريدة في طابعها وغايتها وتكوينها.

وهي في جميع مجالاتها أيضًا بسطًا و إيجازًا لغاية ثابتة لا تتغير ولا تتبدل، وهو بسط العقيدة وتقريبها إلى أذهان الناس ووجداناهم، وتوصيل هذه المفاهيم للمسلمين الذين يقفون مع الرسول صلى الله عليه وسلم ضد الجهل والجهالة العمياء، كذلك فإن العناصر التي تتضمنها القصة القرآنية في جميع أحوالها لا تتغير، فكل ما يخدم القصة و يبرز جوهرها وارد في القصة، لا حذف ولا انتقاص ... وكل ما يخرج عن الجوهر في القصة أو يعطل تأثيرها أو ينتقص منه من مجاله ونسقه بحيث يغطي عليه موقف آخر لا نجده في القصة القرآنية، سواء كان هذا النبأ طويلًا متعدد الحلقات، يمتد لزمن غير قصير، وتتداخل في تطوراته شخصيات كثيرة كقصة يوسف عليه السلام التي استأثرت بسورة كاملة، أو كان من آيتين أو ثلاث أو عشر كالأنبياء والأحاديث العديدة التي انتشرت في قصص القرآن.[1]

وهي أيضًا رسالة تواصلية تقوم على عناصر ستة أساسية للتواصل الكلامي، وأهمها: الرسالة أو الخطاب الذي يشترط فيه أن يكون مستندا إلى سياق، وسنن، وصلة، والأهم الوظيفة المرجعية، التي هي أساس كل تواصل، وهي تحدد العلاقات بين الرسالة «الخطاب» والشيء، أو الغرض الذي ترجع إليه، وهي أكثر الوظائف اللسانية أهمية في عملية التواصل، في حين لا تقوم الوظائف الأخرى إلا على دور ثانوي.

(١) محمد قطب: من جماليات التصوير في القرآن الكريم، القاهرة، الهيئة العامة، ٢٠٠٦، ص٣٥٦.

## سورة يوسف بين التفسير والبناء القصصي:

البناء القصصي أحفل بالأسرة، وأعمل في النفس، وأبعث على الطمأنينة والرجاء إنه أخف على السمع، وأرعى للانتباه، لا يأمر ولا ينهي، ولكن يقص الأنباء، ويصف الأحداث، ويقرن العمل بعاقبته والجزاء عليه، في بيان رائع وتصوير صادق، يجيش بالحياة والحركة، فتسرى الحكمة منه والموعظة إيحاء وانفعالًا، لا طاعة لأمر، ولا تأثيرًا بوعظ، فيتزل من أعماق النفس في قرار مكين حتى كأنه من نبع الوجدان و إشعاع الذات.[١]

هذا الطرح ليس جديدًا، لكنه مدخل مهم وشيق قبل الاحتفاء بجوهر الاتصال والتواصل داخل السورة، ومن ثم لزم التنويه بأن أغلب عطاءات هذا المبحث جاءت عبر الإفادة من إسهامات الآخرين، والإحالة البحثية لأصحاب المساهمات مذكورة مع بيان أوجه الاستحسان والقصور إن وجدت.

أما عن سورة يوسف عليه السلام فهي سورة مكية كلها إلا أربع آيات منها[٢]، وروي في هذا أن اليهود سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قصة يوسف فنزلت السورة، ويروى أيضا أن اليهود قالوا: سلوه – أي: سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم - لم انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر؟ وعن خبر يوسف؟ فأنزل الله عز وجل هذا بمكة موافقا لما في التوراة، وفيه زيادة ليست عندهم.[٣].

وقصة يوسف في القرآن تختص بما لم تختص به قصة نبي، فقد ذكر العلماء أن الله ذكر أقاصيص الأنبياء في القرآن، وكررها بمعنى واحد في وجوه مختلفة

---

(١) علي النجدي ناصف: مع القرآن في دراسة مستلهمة، القاهرة، ص٢٣.

(٢) القرطبي، ج ١١، ص ٢٤٠. (اعتمدنا في هذا المبحث على تفسير الشيخ محمد متولي الشعراوي طبعة أخبار اليوم المصرية، وتفسير الشيخ الطاهر بن عاشور: التحرير و التنوير. المكتبة التونسية) ودروس الشيخ صلاح الدين التجانى سورة يوسف. شبكة المعلومات الدولية.

(٣) السابق، ص ٢٤٢.

بألفاظ متباينة على درجات البلاغة، وقد ذكر قصة يوسف ولم يكررها، فلم يقدر مخالف على معارضة ما تكرر، ولا على معارضة غير المتكرر.[١]

أنها السورة الوحيدة التي سميت «بأحسن القصص» من بين سائر الأقاصيص لاشتمالها على كثير من العبر والحكم، وكذلك لحسن مجازاة يوسف إخوته وصبره على آذاهم، وعفوه عنهم، وقيل أيضا لاحتوائها على ذكر الأنبياء الصالحين والملائكة والشياطين والجن والإنس والأنعام والطير، وسير الملوك والمماليك والتجار والعلماء والجهال والرجال والنساء وحيلهن ومكرهن، وفيها ذكر التوحيد والفقه والسير وتعبير الرؤيا والسياسة والمعاشرة وتدبير المعاش، وجمل الفوائد التي تصلح للدين والدنيا.

وقيل أيضا سميت بأحسن القصص لأن كل من ذكر فيها كان مآله السعادة، يوسف وأبيه وإخوته وامرأة العزيز والملك ومستعبر الرؤيا الساقي والشاهد، فما كان أمر الجميع إلا الخير.[٢]

أن قصة يوسف عليه السلام تلتقي مع ما ذكر في سفر التكوين (٣٧ – ٥٠) حيث عرضت لسورة يوسف منذ البداية وحتى النهاية، لكن الفروق الكثيرة واضحة بين ما ذكر في التوراة، وما جاء في سورة يوسف، فالروح الإيمانية، والتربوية والأخلاقية تتجلى في السرد القرآني، بينما يسيطر السرد التاريخي في القراءة مع إغراق في الخيال وتضارب في الحقائق والأوصاف.[٣]

وكون السورة مكية يعني أن الإيجاز هو السمة المميزة لها، والإيجاز يستتبع الحذف، ذلك أن الله سبحانه وتعالى جعل لأهل مكة قصصًا مميزة تتلاءم مع البيئة؛ فالبيئة وثنية، والقوم يعبدون الأصنام، وطال عمرهم بها ومصاحبتهم لها؛

(١) السابق، ص ٢٤٠.
(٢) السابق، ص ٢٤٣، ص ٢٤٤.
(٣) الإعجاز التاريخي والأدبيه والتربوي في سورة يوسف بحث مقدم للمؤتمر العالمي الثامن للإعجاز العلمي في القرآن والسنة ٢٠٠٦. د عبد الحليم عويس، ص ١٦.

أجيالًا وراء أجيال حتى انطبعت قلوبهم بها وتشربت نفوسهم، فقست القلوب وتحجرت المشاعر، وأصبح اقتلاعهم من جذورهم يحتاج مجاهدة كبيرة وصبرًا طويلًا، بالإضافة إلى احتفاء السورة بالحدث الموجز، واللفظ الموقع ذي الرنين الصوتي، والتنقل السريع الذي يحدث تأثيره في النفوس[١].

أنها السورة الثالثة والخمسون في ترتيب النزول على قول الجمهور، ولم تذكر قصة نبي في القرآن بمثل ما ذكرت قصة يوسف – عليه السلام -هذه السورة من الإطناب، أما اسم نبي الله يوسف فلم يذكر في غيرها إلا في سورتي الأنعام وغافر.

تحكي السورة أيضًا كيف سافر نبي عظيم إلى الله غير معتمد على جاه أو جمال أو سلطان، لكن اعتماده كان على عز الله تعالى ورحمته.

وفي القصص الفني الحديث يضيف القصاص لقطات خيالية من أجل الحبكة[٢] الفنية والإثارة وجذب الانتباه.

أما قصص القرآن فوضعه مختلف تماما، فكل قصص القرآن إنما يتتبع ما حدث فعلا: لنأخذ منها العبرة[٣]؛ لأن القصة نوع من التاريخ.

والقصة في القرآن مرة تكون للحدث، ومرة تكون لتثبيت فؤاد الرسول صلى الله عليه وسلم، فلم تأت قصة رسول في القرآن كاملة، إلا قصة يوسف عليه السلام.

---

(١) محمد قطب: جماليات التصوير في القرآن الكريم، ص٣٥٧.

(٢) الحبك: الشد والحبكة الحبل يشد به على الوسط. والتحبيك: التوثيق. وجاد ما حبكه إذا أجاد نسجه. وحبك الثوب يحبكه حبكا أجاد نسجه وحسن أثر الصنعة فيه. (لسان العرب – مادة: حبك] ويستعار اللفظ ليستخدم في الحبكة القصصية كأنها ثوب يجاد نسجه وصنعه فلا يكون مهلهلا.

(٣) وذلك في قوله تعالى {لقد كان لكم في قصصهم عبرة لأولي الألباب}، والعبرة اسم للشيء الذي يتعظ به الإنسان والعبرة: العظة. قال تعالى {إن في ذلك لعبرة} [النور]، وقال: {فاعتبروا يا أولي الأبصار} [الحشر] أي: لتعظوا [القاموس القويم ٢/ ٤].

أما بقية الرسل فقصصهم جاءت لقطات في مناسبات لتثبيت فؤاد[1] الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، فتأتي لقطة من حياة رسول، ولقطة من حياة رسول آخر، وهكذا.

ولا يقولن أحد: إن القرآن لم يستطع أن يأتي بقصة كاملة مستوفية؛ فقد شاء الحق ـ سبحانه ـ أن يأتي بقصة يوسف من أولها إلى آخرها، مستوفية، ففيها الحدث الذي دارت حوله أشخاص، وفيها شخص دارت حوله الأحداث، فقصة يوسف ـ عليه السلام ـ في القرآن لا تتميز بالحبكة فقط؛ بل جمعت نوعي القصة، بالحدث الذي تدور حوله الشخصيات وبالشخص الذي تدور حوله الأحداث. جاءت قصة يوسف بيوسف، وما مر عليه من أحداث؛ بدءًا من الرؤيا، ومروراً بحقد الإخوة وكيدهم، ثم محاولة الغواية[2]له من امرأة العزيز، ثم السجن، ثم القدرة على تأويل الأحلام، ثم تولي السلطة، ولقاء الإخوة والإحسان إليهم، وأخيراً لقاء الأب من جديد.

إذن فقول الحق سبحانه:﴿**نَحْنُ نَقُصُّ عليك أَحْسَنَ الْقَصَصِ**﴾ يبين لنا أن الحسن أتى لها من أن الكتب السابقة تحدثت عن قصة يوسف عليه السلام، لكن أحبار[3]اليهود حين قرءوا القصة كما جاءت بالقرآن ترك بعضهم كتابه، واعتمد على القرآن في روايتها، فالقصة أحداثها واحدة، إلا صياغة الأداء؛ وتلمسات المواجيد النفسية؛ وإبراز المواقف المطوية في النفس البشرية؛ وتحقيق الرؤى الغيبية كل ذلك جاء في حبكة ذات أداء بياني معجز جعلها أحسن القصص.

---

(١) يقول الحق سبحانه: {وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين} [هود] أي: نثبت به فؤادك على أداء الرسالة والصبر على ما ينالك فيها من الأذى. [تفسير القرطبي ٤/ ٣٤٣٥].

(٢) الغواية: الضلال والانهماك في الغي والفساد. غوي يغوي: انهمك في الجهل وهو ضد الرشد. قال تعالى: {لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي} [البقرة] [القاموس القويم ٢/ ٦٤].

(٣) الأحبار: جمع حبر. وهو العالم. قال تعالى: {اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله..} [التوبة] وأصل الكلمة الحبر الذي يكتب به. وهو المداد، وكل ما حسن من خط أو كلام أو شعر أو غير ذلك فقد حُبِر حَرْر وحُبْر. [لسان العرب – مادة: حبر].

أو هي أحسن القصص بما اشتملت عليه من عبر متعددة، عبر في الطفولة في مواجهة الشيخوخة، والحقد الحاسد بين الإخوة، والتمرد، و إلقائه في الجب والكيد له، ووضعه سجيناً بظلم، وموقف يوسف عليه السلام من الافتراء الكاذب، والاعتزاز بالحق حتى تم له النصر والتمكين.

وكيف ألقى الله على يوسف ـ عليه السلام ـ محبة منه؛ ليجعل كل من التقى به يحب خدمته. وكيف صان يوسف إرث النبوة، بما فيها من سماحة وقدرة على العفو عند المقدرة؛ فعفا عن إخوته بما روته السورة:﴿**قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**[1]﴾(سورة يوسف:٩٢)

وقالها سيد البشر محمد صلى الله عليه وسلم لأهله يوم فتح مكة: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»[2] وهكذا تمتلئ سورة يوسف بعبر متناهية، يتجلى بعض منها في قضية دخوله السجن مظلوماً، ثم يأتيه العفو والحكم؛ لذلك فهي أحسن القصص؛ إما لأنها جمعت حادثة من دار حولها من أشخاص، أو جاء بالشخص وما دار حوله من أحداث. أو أنها أحسن القصص في أنها أدت المتحد والمتفق عليه في كل الكتب السابقة وجاء على لسان محمد الأمي، الذي لا خبرة له بتلك الكتب؛ لكن جاء عرض الموضوع بأسلوب جذاب مستميل مقنع ممتع.

أو أنها أحسن القصص؛ لأن سورة يوسف هي السورة التي شملت لقطات متعددة تساير: العمر الزمني؛ والعمر العقلي؛ والعمر العاطفي للإنسان في كل أطواره؛ ضعيفًا؛ مغلوباً على أمره؛ وقويا مسيطراً، ممكنًا من كل شيء. بينما نجد أنباء الرسل السابقين جاءت كلقطات موزعة كآيات ضمن سور أخرى؛ وكل آية جاءت في موقعها المناسب لها.

---

(١) ثربه: لامه وعتب عليه. وثربه بالتضعيف: أكثر لومه، وغيره بذنبه، وأنبه على سوء فعله. قال تعالى: {لاتثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم} [يوسف] أي: لا لوم ولا تأنيب. [القاموس القويم ١/ ١٠٦].

(٢) قال ابن إسحاق حدثني بعض أهل العلم أن رسول الله قام في خطابه على باب الكعبة فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له. صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده... إلى أن قال ما ترون أني فاعل فيكم؟ قالوا: خيرًا. أخ كريم، وابن أخ كريم. قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء» [راجع: السيرة النبوية لابن هشام ٤/ ٤١٢].

إذن: فالحسن البالغ قد جاء من أسلوب القرآن المعجز الذي لا يستطيع واحد من البشر أن يأتي بمثله. قال تعالى:﴿**نَحْنُ نَقُصُّ عليك أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إليكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ**﴾ (سورة يوسف:٣)

والمقصود بالغفلة هنا أنه صلى الله عليه وسلم كان أميًّا، ولم يعرف عنه أحد قبل نزول القرآن أنه خطيب أو شاعر، وكل ما عرف عنه فقط هو الصفات الخلقية العالية من صدق وأمانة؛ وهي صفات مطلوبة في المبلغ عن الله؛ فمادام لم يكذب من قبل على بشر، فكيف يكذب وهو يبلغ عن السماء رسالتها لأهل الأرض؟

إن الكذب أمر مستبعد تماماً في رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل البعثة وبعدها. والمثال على تصديق الغير لرسول الله هو تصديق أبي بكر رضي الله عنه له حين أبلغه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الوحي قد نزل عليه، لم يقل له أكثر من أنه رسول من عند الله، فقال أبو بكر ـ رضي الله عنه: صدقت. وحين حدثت رحلة الإسراء؛ كذبها البعض متسائلين: كيف نضرب إليها أكباد الإبل شهرًا، ويقول محمد إنه قطعها في ليلة؟ فسألهم أبو بكر: أقال ذلك؟ قالوا: نعم. فقال أبو بكر: مادام قد قال فقد صدق»[١].

وهكذا نجد أن حيثية الصدق قبل الرسالة هي التي دلت على صدقه حين أبلغ بما نزل عليه من وحي. مثال ذلك: تصديق خديجة رضي الله عنها وأرضاها له؛ حين أبلغها بنزول الوحي، فقالت له: «والله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل

(١) ذكر ابن هشام في السيرة النبوية (١: ٣٩٨) باختصار « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أصبح بعد عودته من بيت المقدس غدا على قريش فأخبرهم الخبر، فأنكروا عليه ذلك، وقصدوا أبا بكر وعرضوا عليه هذا الأمر في إنكار، فقال لهم أبو بكر: إنكم تكذبون عليه. فقالوا: بلى ها هو ذاك في المسجد يحدث به الناس. فقال أبو بكر: والله لئن كان قاله لقد صدق، فما يعجبكم من ذلك. فو الله إنه ليخبرني أن الخبر ليأتيه من الله من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه، فهذا أبعد مما تعجبون منه».

الرحم، وتحمل الكل[١]، وتكسب المعدوم[٢]، وتقري[٣] الضيف، وتعين على نوائب[٤] الحق[٥]». وكان في صدق بصيرتها، وعميق حساسية فطرتها أسباب تؤيد تصديقها له صلى الله عليه وسلم في نبوته.[٦]

وحين وقعت بعض الأمور التي لا تتفق مع منطق المقدمات والنتائج، والأسباب والمسببات؛ كانت بعض العقول المعاصرة لرسول الله تقف متسائلة: كيف؟ فيوضح لهم أبو بكر: «انتبهوا إنه رسول الله». مثال هذا: ما حدث في صلح الحديبية، حين يقول عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ متسائلاً ـ ويكاد أن يكون رافضاً لشروط هذا الصلح: ألسنا على الحق؟ علام نعطي الدنية[٧] في ديننا؟ ويرد عليه أبو بكر ـ رضي الله عنه: استمسك بغرزه[٨] يا عمر، إنه رسول الله[٩].

أي: انتبه واعلم أنك تتكلم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وليس في ذلك انصياع أعمى؛ بل هي طاعة عن بصيرة مؤمنة. والحق سبحانه يقول هنا: ﴿وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ (سورة يوسف:٣) والغافل: هو الذي لا يعلم ـ لا عن جهل، أو قصور عقل ـ ولكن لأن ما غفل عنه هو أمر لا يشغل باله[١٠].

---

(١) الكل: هو من لا يستقل بأمره، قال تعالى: {وهو كل على مولاه} [النحل]، والكل هو: العاجز الثقيل لا خير فيه [القاموس القويم ٢/ ١٦٩] باختصار.

(٢) المعدوم: كالميت الذي لا تصرف له. والمعنى: أنك تعطي الناس ما لا يجدونه عند غيرك [فتح الباري ١: ٢٤].

(٣) قرى الضيف: أضافه. والقرى: طعام الأضياف. [لسان العرب – مادة: قري].

(٤) النوائب: جمع نائبة، وهي ما ينوب الإنسان أي: ينزل به من الملمات والحوادث، والنائبة: المصيبة من مصائب الدهر تنزل بالإنسان. [لسان العرب – مادة: نوب] بتصرف.

(٥) حديث بدء الوحي أخرجه البخاري في صحيحه (٣). وكذا مسلم في صحيحه (١٦٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٦) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «آمنت بي إذ كفر الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس. وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني منها الله الولد دون غيرها من النساء». أخرجه أحمد في مسنده (٦/ ١١٨) من حديث عائشة.

(٧) الدنية: الخصلة المذمومة. ورجل دَنِيٌّ من قوم أدنياء هو الضعيف الخسيس [لسان العرب – مادة دنا] باختصار.

(٨) الغرز: ركاب الرحل. وكل ما كان مساكا للرجلين في المركب غرز. والغرز للناقة مثل الحزام للفرس. ومثل الركاب للبغل، ومنه حديث أبي بكر أنه قال لعمر: استمسك بغرزه، أي: اعتنق به وأمسكه واتبع قوله وفعله ولا تخالفه. فاستعار له الغرز كالذي يمسك بركاب الراكب ويسير بسيره. [لسان العرب – مادة: غرز].

(٩) أخرجه أحمد في مسنده (٤/ ٣٣٣ – ٣٢٥) من حديث المسور بن مخرمة الهري ومروان بن الحكم وثمامة «أن عمر بن الخطاب أتى أبا بكر فقال: يا أبا بكر أو ليس برسول الله» أو لسنا بالمسلمين؟ أو ليسوا بالمشركين؟ قال: بلى، قال: فعلام تعطي الذلة في ديننا؟ فقال أبو بكر: يا عمر الزم غرزه حيث كان» الحديث.

(١٠)انظر تفسير الشعراوي، سورة يوسف. أخبار اليوم.

روي الواحدي والطبري يزيد أحدهما على الآخر عن سعد بن أبي وقاص أنه قال: أنزل القرآن فتلاه رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه زمانا، فقالوا: أي المسلمون بمكة: يا رسول الله لو قصصت علينا، فأنزل الله:﴿**الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (١) إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢)**﴾الآيات الثلاث.

أما أهم أغراض السورة فبيان قصة يوسف – عليه السلام – مع إخوته، وما لقيه في حياته، وما في ذلك من العِبَر من نواح مختلفة.

وفيها إثبات أن بعض المرائي قد يكون إنباء بأمر مغيب، وذلك من أصول النبوءات، وهو من أصول الحكمة المشرقية كما سيأتي عند قوله تعالى: ﴿**إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا**﴾الآيات.

وأن تعبيرالرؤيا علم يهبه الله لمن يشاء من صالحي عباده.وتحاسد القرابة بينهم. ولطف الله بمن يصطفيه من عباده.

والعبرة بحسن العواقب، والوفاء، والأمانة، والصدق، والتوبة. وسكنى إسرائيل وبنيه بأرض مصر. وتسلية النبي صلى الله عليه وسلم بما لقيه يعقوب ويوسف –عليهم السلام - من آلهم من الأذى. وقد لقي النبي صلى الله عليه وسلم من آله أشد ما لقيه من عداء كفار قومه، مثل عمه أبي لهب، والنضر بن الحارث، وَأَبِي سُفْيَانَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَإِنْ كَانَ هَذَا قَدْ أَسْلَمَ بَعْدُ وَحَسُنَ إِسْلَامُهُ، فَإِنَّ وَقْعَ أَذَى الْأَقَارِبِ فِي النُّفُوسِ أَشَدُّ مِنْ وَقْعِ أَذَي الْبُعَدَاءِ، وفيهَا الْعِبْرَة بصبر الْأَنْبِيَاء مثل يَعْقُوب ويوسف - عليهم السَّلَامُ- على الْبَلْوَى. وَكَيْفَ تَكُونُ لَهُمُ الْعَاقِبَةُ.

وَفِيهَا الْعِبْرَةُ بِهِجْرَة قوم النبي صلى اللهُ عليه وَسَلَّمَ إلى الْبَلَدِ الَّذِي حَلَّ بِهِ كَمَا فَعَلَ يَعْقُوبُ - عليه السلام- وَ آلُهُ ، وَذَلِكَ إِيمَاءٌ إلى أَنَّ قُرَيْشًا يَنْتَقِلُونَ إلى الْمَدِينَةِ مُهَاجِرِينَ تبعا لهجرة النبي صلى اللهُ عليه وَسَلَّمَ. وَفِيهَا مِنْ عِبَرِ تَارِيخِ الْأُمَمِ

وَالْحَضَارَةِ الْقَدِيمَةِ وَقَوَانِينِهَا وَنِظَامِ حُكُومَاتِهَا وَعُقُوبَاتِهَا وَتِجَارَتِهَا. وَاسْتِرْقَاقُ الصَّبِيِّ اللَّقِيطِ. وَاسْتِرْقَاقُ السَّارِقِ، وَأَحْوَالُ الْمَسَاجِينِ. وَمُرَاقَبَةُ الْمَكَايِيلِ.(١)

وَفِي هَذِهِ السُّورَةِ أُسْلُوب خَاص مِنْ أساليب إِعْجَازِ الْقُرْآنِ وَهُوَ الْإِعْجَازُ فِي أُسْلُوبِ الْقَصَصِ الَّذِي كَانَ خَاصَّةُ أَهْلِ مَكَّةَ يَعْجَبُونَ مِمَّا يَتَلَقَّوْنَهُ مِنْهُ مِنْ بَيْنِ أَقَاصِيصِ الْعَجَمِ وَالرُّومِ، فَقَدْ كَانَ النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ وَغَيْرُهُ يَفْتِنُونَ قُرَيْشًا بِأَنَّ مَا يَقُولُهُ الْقُرْآنُ فِي شَأْنِ الْأُمَمِ هُوَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا مُحَمَّدٌ صلى اللهُ عليه وَسَلَّمَ.

وَكَانَ النَّضْرُ يَتَرَدَّدُ على الْحِيرَةِ فَتَعَلَّمَ أَحَادِيثَ (رُسْتُمَ) وَ( اسْفَنْدَيَارَ) مِنْ أَبْطَالِ فَارِسٍ، فَكَانَ يُحَدِّثُ قُرَيْشًا بِذَلِكَ وَيَقُولُ لَهُمْ: أَنَا وَاللَّهِ أَحْسَنُ حَدِيثًا مِنْ مُحَمَّدٍ فَهَلُمَّ أُحَدِّثُكُمْ أَحْسَنَ مِنْ حَدِيثِهِ، ثُمَّ يُحَدِّثُهُمْ بِأَخْبَارِ الْفُرْسِ، فَكَانَ مَا فِي بَعْضِهَا مِنَ التَّطْوِيلِ على عَادَةِ أَهْلِ الْأَخْبَارِ مِنَ الْفُرْسِ فَجَاءَتْ هَذِهِ السُّورَةُ على أُسْلُوبِ اسْتِيعَابِ الْقِصَّةِ تَحَدِّيًا لَهُمْ بِالْمُعَارَضَةِ.

على أَنَّهَا مَعَ ذَلِكَ قَدْ طَوَتْ كَثِيرًا مِنَ الْقِصَّةِ مِنْ كُلِّ مَا لَيْسَ لَهُ كَبِيرُ أَثَرٍ فِي الْعِبْرَةِ. وَلِذَلِكَ تَرَى فِي خِلَالِ السُّورَةِ: ﴿**وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ**﴾ [سُورَة يُوسُف: ٥٦] مَرَّتَيْنِ ﴿**كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ**﴾[سُورَة يُوسُف: ٧٦] فَتِلْكَ عِبَرٌ مِنْ أَجْزَاءِ الْقِصَّةِ.

وَمَا تَخَلَّلَ ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ فِي أَقْوَالِ الصَّالِحِينَ كَقَوْلِهِ: ﴿**عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ**﴾ [سُورَة يُوسُف: ٦٧]، وَقَوْلِهِ:﴿**إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ**﴾[سُورَة يُوسُف: ٩٠].(٢)

(١) تفسير التحرير والتنوير، ج١٢، ص١٩٧.

(٢) السابق: ج١٢، ص ١٩٨: ٢٠٠. تونس. الدار التونسية للنشر.

## الوظيفة المرجعية لبنية القص:

يقابل العنوان السابق ما يسمى بالمضمون أو المرجع، ويجب ألا يختلط بين محتوى السورة وإطارها السياقي العام، فالمقصود بالمضمون العالم أو محتوى النص المتكون من خلال الكلمات القرآنية والآيات الكريمة، أم المرجع أو المرجعية فهو العالم الموجود خارج النص القرآني[1] حيث تذكر بعض المراجع أن أحداث القصة ترجع إلى عهد الهكسوس أو الرعاة، وهم قوم غزاة استولوا على مصر حوالى سنة ١٧٠٠ ق.م

ويطلق عليهم اسم الملوك الرعاة. ويبدو أنهم بدو قدموا من سوريا، وكان غزوهم لمصر مشجعا للوافدين، ومنها وفادة إبراهيم عليه السلام، وفي هذا السياق فسر نشاط القوافل التجارية التي كانت منها القافلة التي حملت يوسف عليه السلام بعد انتشاله من غيابة الجب. وقد أشارت دائرة المعارف الإسلامية إلى أن يوسف وفد إلى مصر في عهد «الهكسوس».

وما يؤكد هذا أن القرآن الكريم لم يستخدم كلمة «فرعون» في عهد يوسف، بل ذكر كلمة «ملك»، وهو لقب عرف به كل ملك مصري، إضافة إلى هذا أن المؤرخين يرون أن «الهكسوس» حكموا مصر في أسرتين، هما: الخامسة عشرة، والسادسة عشرة، ثم قضي عليهم بقيام الدولة الحديثة التي خلصت مصر من قبضتهم، والتي منها الأسرة الثامنة عشرة التي يرى جل الدارسين أن موسى عليه السلام ظهر في عهدها.[2]

ولعل من الأدلة التاريخية على أن يوسف كان في عهد « الهكسوس» بلوغه مرتبة التمكين في مصر والسيطرة على خزانتها، لأن ذلك لا يصل إليه أجنبي في عهد الفراعنة، أما الهكسوس الأجانب فليس بغريب أن يختاروا مشرقيا من بينهم

(١) هاشم الأيوبي وآخرون: مبادئ تحليل النصوص، ص٧٤-٧٥
(٢) البيان في روائع القرآن، ج٢، ص ٢٥٤.

لهذا المنصب، وبخاصة عندما يكون صاحب رسالة ودعوة إلى العقيدة وتوحيد الله، من دون الاعتراف بتعدد الآلهة:﴿**يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٤٠)**﴾. ولو أعلن يوسف رسالته هذه في عهد الفراعنة لعذب وقتل، ولما نصب أمينا على خزائن الأرض:﴿**وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤) قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥) وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦)**﴾.

أما المكان الذي حدثت فيه وقائع القصة، فالظاهر أنها تنطلق من عاصمة الهكسوس، وتقع في إقليم الشرقية، أقرب أقاليم مصر إلى صحراء سيناء، ومكانها الآن بلدة «صا الحجر» وهو مكان حيوي مهم للتبادل التجاري، إذ هو الذي سهل للقافلة التي عثرت على يوسف من بيعه إلى وزير الملك المسمى «فوطيفار»، وهو العزيز الذي كان على خزائن مصر في عهد أحد ملوك «الهكسوس»[١].

واعتماد النظرية التواصلية السيميائية والوظيفة المرجعية والانتباهية و الإفهامية التي حددها جاكبسون[٢]، وكذا المعجمية من شأنه أن يبرز الكوامن المتوارية خلف العلامات، إذ القصة جاءت في القرآن الكريم والشخصيات على مسرح الحياة تتحرك، ضمن نهج مسطر منذ الأزل، لا شأن فيه لمنطق المصادفة في البناء السردي.

(١) البيان في روائع القرآن، ج٢، ص ٣٥٥.
(٢) رومان جاكبسون، النظرية الألسنية، ٦٧.

## مشاهد السورة والبناء القصصي

تحتوي قصة سيدنا يوسف على مشاهد عدة، تتزاحم في وصفها مصطلحات أدبية متعددة، فهناك القصة القصيرة جدا، والتي تصلح مرادفا لمشاهد القصة، وهناك القصة القصيرة، وكذلك القصة الومضة، القصة اللقطة، القصة اللوحة، القصة الشبرية، وكلها تقوم وصفا لبعض مشاهد القصة الأم[١]. قصة يوسف عليه السلام.

أما مصطلح اللوحة فهو المصطلح الذي اخترناه وصفا لمشاهد السورة، ذلك أن هذا المصطلح مستمد من الرسم، ولأن من أطلقوا هذه التسمية لاحظوا تجميد الزمن عند لحظة مهمة، ثم تعميق هذه اللحظة من خلال الرسم في المكان، وشحن الكلمات بطاقة مضيئة تسمح برؤية الأبعاد الزمنية السابقة واللاحقة، أو لأن الوصف أو تصوير الأشياء يكثر في هذا النمط، لذا عدوا ذلك من قبيل الرسم بالكلمات[٢].

وفي سورة يوسف عليه السلام، واعتمادا على معطيات علم لغة النص يجرى تقسيم البنية الكبرى للسورة إلى اللوحات الآتية:

**بنية الاستدلال.**

**الرؤيا وبشائر النبوة.**

**الكيد والاستعداد للمؤامرة.**

**محن وابتلاءات.**

**الإنعام والتمكن.**

**لحظة الانفراجة واللقاء.**

---

(١) انظر في تجلية هذه المصطلحات وأنواعها وتحريرها النقدي. أحمد محمد ويس: انزياح وتعدد المصطلح. مجلة عالم الفكر ع ٣، يناير، مارس ١٩٩٧، ص ٥٧، وكذلك توفيق الزيدي: تأسيس الاصطلاحية العربية، مجلة علامات في النقد الأدبي، ج ٨، مج ٢، سنة ١٩٩٣، ص ١٨٣، وانظر أيضا صبري حافظ، الخصائص البنائية للأقصوصة، مجلة فصول مج ٢، ع ٢، صيف ١٩٨٢، ص ١٩ وغيرها.

(٢) د. خيري دومة: تداخل الأنواع في القصة المصرية القصيرة، ص ٢١٣.

وتتقاسم هذه اللوحات آيات السورة، وسط تفاعل منطقي لسير الأحداث، حيث تتحرك شخصيات كل لوحة على مسرح الأحداث بإرادة فاعلة، اعتمادا على آليات الحذف والإيجاز اللفظي، بحيث يتداخل العنصران في سياق واحد، وصولًا للدلالة الكبرى.

أما الآلية اللغوية التي بنيت عليها لغة القص، وشكلت وضوحا بارزا ومقصودا داخل البناء الإعجازي للقص، فهي آلية الحذف، والذي يعد أحد المطالب الاستعمالية في بناء الجمل، فقد يعرض لبناء الجملة المنطوقة أن يحذف أحد العناصر المكونة لهذا البناء، وذلك لا يتم إلا إذا كان الباقي في بناء الجملة بعد الحذف مغنيًا في الدلالة، كافيا في أداء المعنى.

وقد يحذف أحد العناصر لأن هناك قرائن معنوية أو مقالية تومئ إليه، وتدل عليه، ففي قولة تعالى:﴿**قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٢٤)**﴾[١] نجد الإجابة اكتفت بعنصر إسنادي واحد من عنصري الجملة الاسمية وهو الخبر، ولم تذكر المبتدأ، لأن الموقف المقالي كاشف عنه[٢].

والمعنى أن اللغة لا تعمل منعزلة، بل تعمل باعتبارها نصًّا في سياقات فعلية للاستخدام، وهناك دائمًا ما يرشد السامع في تفسير الجملة أكثر مما تقدمه الجملة نفسها[٣].

لقد اعتمد البلاغيون على الحذف في تناول مسألة الإيجاز. يقول صاحب الطراز: «اعلم أن مدار الإيجاز على الحذف، لأن موضوعه على الاختصار، وذلك إنما يكون بحذف ما لا يخل بالمعنى، ولا ينقص من البلاغة. بل أقول لو ظهر

(١) سورة الشعراء.
(٢) (د/ محمد حماسة: بناء الجملة العربية، ص ٢٠٨.
(٣) Helliday &Ruqaiya Hasan: cohesion in Englishp.9.

المحذوف لنزل قدر الكلام من علو بلاغته، ولصار إلى شيء مشترك مسترذل، ولكان مبطلًا لما يظهر على الكلام من الطلاوة والحسن والرقة. ولابد من الدلالة على ذلك المحذوف، فإن لم يكن دلالة عليه فإنه يكون لغوا من الحديث، ولا يجوز الاعتماد عليه، ولا يحكم عليه بكونه محذوفًا بحال»[١].

والدلالة على المحذوف يتكلف بها التركيب المنطوق، وانتماؤه إلى نموذج معين هو البنية الأساسية، والاعتماد على الموقف الكلامي أو المقام[٢].

وقد نبه النحاة على شرط أساسي لوقوع الحذف في الأساليب بأنواعها المختلفة، هذا الشرط الأساسي هو وجود قرينةٍ أو دليل يدل على العُنصر المحذوف، ويشير إليه.

يقول ابن جني: «قد حَذفَتِ العربُ الجملةَ، والمفرد، والحرف، والحركة، وليس شيء من ذلك إلا عن دليل عليه، وإلا كان فيه ضَرْب من تكليف علم الغيب في معرفته»[٣]. ويفسر ابن يعيش المقصود من « الدليل» الذي يشير إليه ابن جني هنا فيقول: «اعلم أن المبتدأ والخبر جملة مفيدة، تحصل الفائدة بمجموعها؛ فالمبتدأ مُعتمد الفائدة، والخبر محلُّ الفائدة، فلابد منها»[٤] إلا أنه قد توجد قرينةٌ لفظية أو حالية تغني عن النطق بأحدهما؛ فيحذف لدلالتها عليه؛ لأن الألفاظ إنما جيءَ بها للدلالة على المعنى. فإذا فُهم المعنى بدون اللفظ جاز أن لا تأتي به، ويكون مرادًا حُكمًا وتقديرًا.

ويكشف عبد القاهر عن قيمة الحذف الفنية، وأغراضه البلاغية في الأساليب قائلاً: «هو باب دقيقُ المَسْلك، لطيفُ المأخذ، عجيبُ الأمر، شبيه

(١) (العلوي: الطراز. تحقيق دكتور إبراهيم الخولي. القاهرة، سلسلة الذخائر، ٢٠٠٩، ص ٩٢
(٢) د/ محمد حماسة عبد اللطيف: بناء الجملة العربية، ص ١.
(٣) ابن جني: الخصائص. تحقيق محمد علي النجار. القاهرة، دار الكتب المصرية ، ج ٢/ ٣٦٠.
(٤) (ابن يعيش: شرح المفصل. عالم الكتب، بيروت، ج ١/ ٤٩.

بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدُك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بيانًا إذا لم تُبِين».[١]

وكَشْفُ عبد القاهر عن قيمة الحذف قائم على المفارقة الناشئة بين الحذف والإبانة. بل بين الحذف والتفوق على الذِّكر في الإفادة والإفصاح، ولا يتم هذا للحذف إلا إذا أحسن استغلاله في الأسلوب حتى يجيء متفوقًا بإيحائه و إلماحه على غيره من الأساليب النمطية والمألوفة التي تصرح ولا توحي، فإسقاط بعض عناصر البناء اللغوي يثري الإيحاء، ويقويه، وينشط خيال المتلقي من ناحية أخرى وبهذا يحقق الحذف والإضمار هدفا مزدوجًا[٢].

وللحذف قيمته الدلالية التي تتيح القدرة على الإيحاء والتكثيف، ولما كانت هذه الأغراض تختلف كانت دلالات الحذف متعددة ومتنوعة، لتوقفها على السياق الواقعة فيه، وطبيعة النص.

ويظهر الحذف أيضا عندما تشتمل عملية فهم النص على إمكانية إدراك الانقطاع على مستوى سطح النص، حيث « يميل المتكلم إلى إسقاط بعض العناصر من الكلام اعتمادًا على فهم المخاطب، وإدراكه للعناصر المحذوفة تارة، ووضوح قرائن السياق تارة أخرى»[٣].

هذا العنصر الذي يميل المتكلم إلى إسقاطه يكون عنصرًا سابقًا على مستوى النص، كما يعد مصدرًا للمعلومة المفقودة، وإسقاط هذا العنصر يسبب فجوة على مستوى البنية التركيبية، يمكن ملؤها من مكان آخر في النص[٤]، وهنا يأتي دور التفاعل بين المعرفة والأعراف التركيبية للغة في فهم المحذوف[٥].

---

(١) (عبد القاهر: دلائل الإعجاز. ص ١٤٦.

(٢) (د. على عشري زايد: بناء القصيدة العربية الحديثة القاهرة، مكتبة الشباب، ١٩٧٩ (ص ٥٧).

(٣) د/ صبحي الفقي: علم لغة النص، ج٢، ص ١٩١.

(٤) Halliday &Ruqaiya Hasan: cohesion in English.p.143.

(٥) Robert de Beougrande & Dressler:introduction to text linguistics. P66.

ويقوم المتلقي بدوره بمجموعة من العمليات الذهنية الناتجة عن الحذف لسد الفجوات التي تقع على المستوى التركيبي أو سطح النص اعتمادًا على معرفته الأساسية بالأعراف التركيبية[١] وكذلك يشترط في الحذف إحاطة متلقي النص بمكونات السياق الاجتماعي المصاحب له؛ ليتمكن من تقدير المحذوف تقديرًا صائبًا، وحتى يحافظ على استمرارية فعل التلقي[٢].

ويبدو الحذف أكثر وضوحًا في حالة خلو البنى اللاحقة من الأفعال، ويطلق روس على هذه الحالة اسم الفجوية، وذلك لأن الفعل هو آخر ما يمكن الاستغناء عنه[٣] مثل: ﴿**إنَّ الله بريءٌ مِنَ المُشركينَ ورسولهُ**﴾ [بريء من المشركين])[٤].

ولا تختلف النظرة السابقة عن وجهة نظر اللغويين العرب في نظرتهم إلى الاتصال اللفظي الفعلي إلى حال السامع، وما يجعلونه في الكلام من الحذف استخفافًا لعلم السامع بما يريد القائل، وهذا من أهم ما يميز الشفرة المنطوقة في قناة الاتصال اللفظي؛ كقولك: « الهلال والله، أي هذا الهلال وأغنى عن قوله (هذا) القصد والإشارة وكان يقال لرؤبة: كيف أصبحت؟ فيقول: خيرِ عافاك الله (بكسر الراء)، فلم يضمر حرف الخفض، ولكنه حذف بكثرة الاستعمال»[٥] وكان ابن جني (ت٢٩٣هـ) يفسر حذف الباء في كلام رؤبة السابق بدلالة الحال عليها بجري العادة والعرف بها[٦] والعادة والعرف من العوامل الاتصالية التداولية غير اللغوية، والمؤثرة في بنية العلامات اللغوية ذاتها[٧].

---

(١) Ibid, p.66-67.
(٢) د/ محمد خطابي: لسانيات النص، ص ٢١ - ٢٢.
(٣) Robert de Beougrande &Dressle r:introduction to text linguistics. p67
(٤) التوبة، الآية (٣) .
(٥) الكامل.ج ١، ص ٢٩٤.
(٦) الخصائص، ج١، ص ٢٨٥.
(٧) العبارة والإشارة، ص ١٨٣.

وقد فطن ابن جني أيضًا إلى آلية الاستغناء عن بعض المنطوقات في البنى التركيبية اعتمادًا على أن بعض المنطوقات تكون معروفة بين المشاركين في التواصل، من ذلك أيضًا ما رواه سيبويه، أن أحدهم يقول: ألا تا؟ أي تجيء، فيقول الآخر: بلى فا، أي فأقبل ونحوه[1]، ويرى ابن جني أيضًا أن أبا بكر بن الأنباري كان يتوقف عند كثيرًا مما أسرع إليه أبو أسحاق من ارتكاب طريق الاشتقاق. قال ابن جني: « واحتج أبو بكر عليه بأنه لا يؤمن أن تكون هذه الألفاظ المنقولة إلينا قد كانت لها أسباب لم نشاهدها، ولم ندر ما حديثها، ومثل له بقولهم (رفع عقيرته)إذا رفع صوته. قال له أبو بكر: فلو ذهبنا نشتق لقولهم (ع ق ر) من معنى الصوت لبعد الأمر جدًّا؛ وإنما هو أن رجلاً قطعت إحدى رجليه فرفعها ووضعها على الأخرى، ثم نادى، صرخ بأعلى صوته، فقال الناس: رفع عقيرته؛ أي رجله المعقورة. قال أبو بكر: فقال أبو إسحاق: لست أدفع هذا. ولذلك قال سيبويه في نحو من هذا: أو لأن الأول وصل إليه علم لم يصل إلى الآخر»[2]، يعني ما نحن عليه من مشاهدة الأحوال والأوائل.

**وللحذف في عملية الاتصال دور مهم، حيث تسهم** في صنع الترابط داخل النص، فالكاتب يقوم بالحذف عندما يدرك أن قارءه سيدرك المحذوف، ولن تعوقه عملية الحذف عن القراءة. إنه يقوم بالحذف من أجل إضفاء عنصر السرعة على القراءة، بحيث يتواجد المحذوف مفهوميًّا في الكلام، وإن كان غير موجود لفظًا؛ فيسهم التواجد المفهومي في استمراره كعنصر فاعل دلاليا، ويسهم الحذف اللفظي في خلق السرعة القرائية. وعدم الحذف يتعارض مع مبدأ الاقتصاد اللغوي الذي تتسم به النصوص البليغة، كما أنه يصيب القارئ بالملل من كثرة تكرار عنصر لا فائدة من وجوده لفظًا ما دام مفهومًا ومدركًا بالفعل في عقل القارئ[3].

(١) الخصائص، ج١، ص ٢٤٧.
(٢) المرجع السابق، ج١، ص ٢٤٨، والتعليق نقلًا عن العبارة و الإشارة، (ص ١٣٩).
(٣) د/ حسام فرج: علم لغة النص، رؤية منهجية في تفسير النص النثري، ص ٨٨.

يقدم الحذف أيضًا مثالًا إيضاحيًّا على المراجحة بين (الإيجاز والوضوح) حيث يعد عدم الحذف مضيعة للوقت والجهد، والإسراف فيه يؤدي إلى تكثيف البحث وحل المشكلات الناتجة عن كثرة الفجوات الناتجة من الحذف[١].

يسهم الحذف أيضًا في تحقيق عامل الجودة التي يرغبها المتكلم، مؤثرًا برغبته هذه في متلق يحاول المتكلم أن يجنبه إلحاق الضرر بعنصر الفهم. وتفسر كثرة الحذف التي يريدها المتكلم أيضًا حالة إنشاء نصه برغبته أو قصديته إلى إلغاز النص وإبهامه، حيث تؤول هذه الظاهرة في بعض الخطابات بالخوف من الرقيب أو السلطة، وهنا يمكن إدراج أغراض الحذف القائمة على مفهوم القصدية من قبيل التعظيم والاهتمام والتحقير والإبهام والتعميم، حيث يتحكم في ارتباط الحذف بأي من هذه الأغراض عامل السياق.

يؤدي الحذف على مستوى البنى التركيبية داخل النص إلى تنشيط العمليات الذهنية التي يقوم بها المتلقي، ومن ثم بعث الخيال وتنشيط الإيحاء، فيرتبط تعدد دلالات النص بتعدد المتلقين وثقافتهم ومعرفتهم بأعراف اللغة، وتنوع القدرة على الاحتفاظ بالعناصر المحذوفة في الذاكرة لحين الانتهاء من القراءة، مما ينتج عنه استمرارية في التلقي، وفي الربط المفهومي بتعليق الكلام اللاحق على السابق.

كذلك قد يرجع الحذف إلى طول الكلام تخففًا من الثقل جنوحًا إلى الإيجاز في مواضع تستطيل فيها التراكيب كجملة الصلة وأسلوب الشرط وأسلوب القسم وفي سياق العطف، ومثل حذف الأفعال الدالة على القول « مكث / قالوا/ قيل.. إلخ» لأن القول عادة جملة طويلة أو عدة جمل، وذكره يغني عن لفظ فعل القول[٢].

(١) د/ صبحي الفقي: علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، ج٢، ص ١٩١ - ٢٢١.
(٢) د/ طاهر سليمان حمودة: ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي ، القاهرة، الدار الجامعية للطباعة والنشر، ١٩٨٢، ص ٣٩- ٤٢.

لقد افترضت اللسانية الأمريكية أوكس (١٩٧٩) أن هناك فرقًا وظيفيًّا بين الخطاب المعد المحضر وتقصد به اللغة المكتوبة وبين الخطاب غير المعد أو المحضر وهو اللغة المنطوقة، وعندها أن من صفات الخطاب المكتوب أن يكون خطاباً مضغوطًا يقوم فيه الإيجاز بدور كبير، باعتبار أن هذا الخطاب يستخدم تأشيرات أو علامات واضحة وكثيرة مثل (أدوات العطف والربط والصلة والحذف وأبنية نحوية معقدة أخرى) وذلك من أجل تحقيق هدف الترابط والتماسك والوحدة اللغوية المضغوطة[١].

ويعمل قانون السبك المتحقق من الحذف داخل فضاء النص أو الخطاب على مستوى متعدد من الجمل لا على مستوى الجملة الواحدة (فالجملة الواحدة ليس فيها مذكور في الغالب يدل على المحذوف كي يمكن فيما بعد أن يتماسك المحذوف مع ما يدل عليه في الجملة)[٢].

ويطلق اللغويون على الدليل الذي يدل على المحذوف بالدليل المقالي، وتتأتى أهمية هذا الدليل في أنه يحقق المرجعية أو الإحالة الداخلية بين المذكور والمحذوف في أكثر من جملة، مما يؤدي إلى تماسك الخطاب وترابطه، وبالتالي استمرارية النص وتفاعله، فضلاً عن عدم تكرار اللفظ أو المحذوف مرة ثانية[٣].

إن القيمة النفسية للحذف تبرز في عملية الاتصال الكلامي بين المتكلم والمخاطب كما يقول ابن يعيش: «و من ذلك قولهم: «الله أكبر دعوة الحق» لأن قولك الله أكبر، إنما هو دعاء إلى الحق، وأن يثني السامع إلى جملة القائلين بالتوحيد، وإلى من شعارهم قول الله أكبر، فيكون دعوة يتداعون بها، كأنه قال:

(١) د/مازن الوعر: دراسات لسانية تطبيقية، دمشق، دار طلاس، ١٩٨٩ ، ص ٨٢.
(٢) علم لغة النص، رؤية منهجية، ص٧٨ .
(٣) د/صبحي الفقي: علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، ج ٢، ص١١٩ -١٢٢.

«ادعوا دعاء الحق»[1] ومثال ذلك في لغة القص قوله تعالى:( ذَلِكَ عَيسي بْنُ مَريمَ قَوْلَ الحَقِّ)[2].

وقد رأي النحاة في هذا الأثر النفسي تفسيرًا للأساليب التي اعتمدت الحذف: وهي الأساليب الإفصاحية المحملة بالمشاعر، كالدعاء والتسبيح والتحية والتعجب، مثل حذف الفعل في المصادر: «سقيًا ورعيًا وخيبة وحمدًا وشكرًا وعجبًا»، أو في المصادر المضافة مثل: حنانيك ودواليك وسبحان الله، ومعاذ الله»[3].

يقول الرضي: «فاستحسن حذف الفعل في بعض المواضع، إما إبانة لقصد الدوام واللزوم بحذف ما هو موضوع للحدوث والتجدد، أي الفعل في نحو: «حمدًا لك، وشكرًا لك، وعجبًا منك، ومعاذ الله وسبحان الله» أو لكون الكلام مما يستحسن الفراغ منه بالسرعة، لبيك وسعديك ودواليك.. فبقي المصدر مبهمًا لا يدري ما تعلق به من فاعل أو مفعول»[4].

فبان من ذلك أن من الأساليب ما يتطلب الحذف لتحقيق غرض هو الإسراع الذي يدل على الموقف و يصوره، كما اتضح مراعاة الأثر النفسي في تفسير هذه الأساليب بحسب المتكلم و إفصاحه وانفعاله الذي يجيء الحذف معبرًا عنه، ومصورًا له، وبحسب تشوُّق المخاطب إلى معرفة المبهم بالتقدير أو بالتفسير بعد الإبهام.

«لقد نظر علماء القرآن واللغويون إلى الحذف على أنه فرع، والذكر أصل، ولا يعدل عن الأصل إلا لضرورة، وهذا التصور مَرَدُّه خصوصية النص المدروس، بوصفه رسالة من ربِّ العالمين إلى البشر، تستوجب فهمها حق الفهم، والإيمان

(١) ابن يعيش: شرح المفصل. ج ١: ص١١٧.
(٢) سورة مريم: آية ٣٤.
(٣) (الرضي: شرح الكافية. ج ١ ص ١١٧.
(٤) السابق، ج١، ص ٧٧.

بها والعمل بمقتضاها، فالمقصديةُ والإخبارية - وهما من معايير تحقق النصية- طاقاتٌ قارَّةٌ فيها ويجب أن تكون كذلك»[1].

والحق إن اللوحات أو المشاهد ترتبط فيما بينها ارتباط عضوي، فالانتقال من موقف إلى آخر في القصة يتم غالبا دون رابط سردي، غير أن الارتباط برابط السببية بين المشاهد يغني عن السرد المحذوف، ويقوم بدوره، ويخلق في الوقت نفسه حالة من الحركة التعبيرية. وتبني القصة في مجملها – والتي توزعت فيها هذه اللوحات – على منطق بنائي ممنهج يعتمد عناصر بنائية مهمة، وهي:

## عنصر الأحداث والحبكة:

هو أهم العناصر في القصص القرآني كله، وهي اللب في أي عمل قصصي، ويقصد بها التنظيم الخاص للعلامات الداخلية بين الأحداث والشخصيات على مستوى الزمان والمكان، وكما هو معروف في حقل الدراسات الأدبية والتحليل الروائي، فإن الحبكة تختلف باختلاف أنواع الروايات وموضوعاتها، فالحبكة السياسية ليست هي نفسها الحبكة النفسية أو الاجتماعية، ومن الناحية النظرية، فإن الحبكة تقوم أساسًا على اختيارات مرحلية تطرح حسب الحدث أو الحال، حيث يحدد كل خيار سردي مرحلة جديدة من مسار الحبكة، على أن كل حبكة فنية، يجب أن تمر بخمس مراحل أساسية متتالية هي:

الوضع في بدايته. التعقيدات أو القوى المعاكسة. الحركة أو التحولات. الحلول أو قوى التوازن. الوضع في نهايته. وقد درس الشكلانيون الروس المراحل التي تشكل البنية الروائية أو القصصية، ولخصوها في العديد من المراحل منها: الحالة في بدايتها وفيها المدخل إلى الموضوع، وتقديم الشخصيات. إبعاد إحدى الشخصيات أو وفاتها أو اختفاؤها. تكليف إحدى الشخصيات بمهمة ما ...وجود

(١) محمد عبد الباسط: النص والخطاب ، ص ٢٦٣.

مخادعة أو غش أو حدث يعقد الأحداث. بداية الأحداث المعاكسة للشخصيات الرئيسة.

تدخل الأطراف المساعدة والأطراف المعرقلة في الأحداث. تلقي خبر أو حدث تكون له أهمية بالنسبة لبقية الأحداث. المواجهة بين شخصين أو فريقين في الرواية. الاعتراف أو الإقرار. اللقاء أو الموت أو الفراق حيث انتهاء الحدث...

على أن هذه المراحل ليست ملزمة، وإنما هي مراحل تحتمل إمكانيات متعددة لبناء أحداث القصص واتساقه. وعنصر الأحداث والحبكة موجود في كل قصة سواء أكانت في قصص كل الأنبياء أم غيرهم، وسواء أكانت موزعة الحلقات أم معروضة في معرض واحد، وسواء اعتمدت على طريقة السرد فحسب أم على طريقة السرد والحوار معا فهو عنصر ضروري لا تقوم القصة إلا به، ولا تتكون إلا على وجوده[1]. وإذا كنا نرى القصة الفنية تتكون من مجموعة من الأحداث والوقائع يؤلف بينها الأديب القاص على نحو بعينه، فإن القرآن الكريم قد سبق إلى ذلك حين أورد كل قصة بطريقة منطقية معجزة تتدرج وتتسلسل إلى أن تنتهي إلى النتائج والأغراض المقصودة، والقصص القرآني لا يعرض من الأحداث إلا ما كان متصلا بالماضي، وآثار السابقين؛ لأن تتبع الأحداث الماضية، وعرض أنباء الأولين هو الذي يحقق المقصود.[2]

ولم يعتمد القصص القرآني في عرض هذه الأحداث على عنصر الخيال الذي من شأنه أن يلون الأحداث بغير ألوانها، أو أن يبدل ويغير من صورها وأشكالها، وإذ نتأمل الأحداث الواردة في قصة يوسف عليه السلام نجد أول مشهد للقصة تم تصويره وهو غلام يخاطب والده برؤيا رآها في منامه، والتي تمثل العقدة الفنية في القصة، وإذ بدأت القصة بالرؤيا فإن تأويلها ظل مجهولًا ينكشف شيئًا فشيئًا، وفي

(١) د. عبد الجواد محمد: أدب القصة في القرآن الكريم. دراسة تحليلية كاشفة. الدار المصرية. الإسكندرية، ٢٠٠٠، ص ١٨.
(٢) محمد أحمد خلف الله: الفن القصصي في القرآن الكريم، مكتبة الأنجلو، سنة ١٩٦٥، ص ٣١٤.

هذه البداية تشويق وتحفيز للمتلقي؛ حيث تتنامى الأحداث الرئيسية في القصة بناء على هذا المطلع (العقدة) الذي ينتهي عنده المقصد في نهاية القصة، وهو تحقيق الرؤيا، وقبل أن تتحقق لا بد من عقدة أخرى لكل حدث، فتكونت العقدة الثانية عندما ثارت غيرة إخوة يوسف من يوسف عليه السلام، وهذه الغيرة قد استثيرت بمؤثرات منها تفضيل يعقوب عليه السلام ليوسف على إخوته لصغر سنه، ونباهته، فبدأت عقدة الحدث الرئيسي الأول (المؤامرة) عندما تآمر أبناء يعقوب على أخيهم يوسف، ويمهد الله عز وجل لهذه المؤامرة بقوله: ﴿**لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ(٧)**﴾[١]، فغيرة الإخوة تسببت في حدث آخر، وهو إجماعهم للقائه في الجب[٢]، ثم يلتفت النسق الكريم وجهة البئر حيث يوسف عليه السلام تكسر وحشته قافلة تلوح في الأفق، وهي تدنو من البئر مما يثلج الصدور بعد لحظة الكرب، قوله تعالى﴿**وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٩)**﴾[٣].

والواقع إن حدث السيارة، وإن كان صغيرًا إلا أنه أسهم في تهيئة الأسباب لتولد حدث أضخم، وهو حدث المراودة[٤]، ومن هنا تبرز إحدى ميزات إحكام البناء الفني وهي طواعية الحدث الفني لانبثاق أحداث جديدة منه؛ إذ يواصل النظم الكريم إعجازه في سبك أحداث القصة، ويتجاوز مرحلة المراهقة والصبا، لينتقل بنا نقلة زمنية ليضعنا معه على عتبة أصعب الأحداث وأقساها في حياته؛ إذ يبهر جماله امرأة العزيز فيسيطر عليها الهوى فتنقلنا به إلى حدث المراودة[٥]، ومن ثم يأتي حدث السجن، وإذا حدث المراودة، قد ولد حدث سجن يوسف عليه السلام، فإن السجن قد ولد تمكين يوسف في الحكم بعدما كان من وقائع

(١) أنبياء الله، أحمد بهجت، دار الشروق، ط ٧، (د.ت)، ص ١٢٣.
(٢) الجانب الفني في القصة القرآنية، خالد أحمد أبو جندي، دار الشهاب، باتنة، (د.ت)، ص ١٥٠.
(٣) سورة يوسف، الآية ١٩.
(٤) الجانب الفني في القصة، ص ١٥١.
(٥) القصة في القرآن الكريم، محمد قطب، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة، (د.ت)، ص ١٢٧.

رؤيا السجينين، ثم رؤيا الملك، وما كان من تصوير القرآن لتبرئته على يد امرأة العزيز، وشهادتها على نفسها.

ويستكمل النظم القرآني سرده للأحداث فنراه بعد تأويله لرؤيا الملك يتولى أمر خزائنه ويعلو شأنه، ولينحت الحدث نحتًا جديدًا يقترب من النهاية حيث يأتي الإخوة إلى مصر ليلتقوا بيوسف فيفاجئهم بسؤاله قائلا: ﴿**قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ (٨٩)**﴾[١]، حينها يمر شريط الأحداث في مخيلتنا، ويقفز بنا الزمن إلى الوراء، ثم يعود بنا إلى بلاط العزيز حيث الإخوة في ذهول.

إن أهم ما يلاحظ على الأحداث أنها تسير بعكس الظاهر، فيوسف عليه السلام محبوب من والده، وهذا أمر جيد في ظاهره، ولكن كانت نتيجته إلقاؤه في الجب، وإلقاؤه في الجب أمر سيئ في ظاهره، ولكن كانت نتيجته أنه أصبح في بيت العزيز، وهذا أمر جيد في ظاهره لكنه عرضه للفتنة ومن ثم السجن، وهذا في ظاهره أمر سيئ أيضا، ولكنه كان سببا؛ لأن يكون سيدنا يوسف عزيز مصر، وأخيرًا يلقي القرآن الكريم الضوء على آخر مشهد وأجله في هذه القصة، وهو تحقيق الرؤيا وفيه يقول تعالى: ﴿**وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا**﴾[٢]، ومن هنا يتجلى لنا الارتباط العضوي بين بداية القصة ونهايتها حيث بدأت بداية مثيرة للتشويق، لتزيح الستار ببطء عن المشهد (الرؤيا) ولتتحول إلى ما يشبه اللغز المحير بما تضمه من رمز خفي وبتنقلات عجيبة، وأوضاع مختلفة حتى تقف على مشهد النهاية (تحقيق الرؤيا)[٣].

---

(١) سورة يوسف، الآية ٨٩.

(٢) سورة يوسف، الآية ١٠٠.

(٣) جماليات البداية والنهاية في القصة القرآنية، عبد الله بن صالح العريني، مجلة الدرعية، السنة العاشرة، العددان ٣٧/ ٣٨ ربيع الأول - جمادي الآخرة ١٤٢٨ هـ/ إبريل - يوليو ٢٠٠٧، ص ١١.

## عنصر الشخصيات:

العمل القصص يقوم على محورين الشخصية والحدث، بمعنى أن تكون الشخصية هي الفلك الذي يدور حوله الحدث، أو تكون الأحداث هي المركز الذي تدور في دائرته الشخصيات، وقد تتوازن في العمل القصصي الشخصية والحدث، فيتبادلان نقطة الارتكاز والتجمع مرة بعد أخرى[1]، والشخصيات تقوم بدور مهم في بنية النص، فهي الفاعل الأساسي الذي يربط بين الأحداث والأمكنة، والتي تمنح أي عمل معناه وكنهه، وعند الباحثين هناك ثلاثة اتجاهات لدراسة الشخصيات، منها الخصائص الذاتية للشخصية. وتقضي بتحديد وظيفة الشخصية في نطاق أحداث القص حسب كل مرحلة، وهناك ما يسمى بالعوامل الروائية أو السردية مثل بطل الحدث والهدف الذي يرمي إليه، والطرف المحرك أو الباعث الذي يحفز ويشجع لتحقيق الهدف، والطرف المستفيد من تحقيق الهدف، والطرف المساعد للبطل على الوصول إلى غايته، والطرف العائق للبطل وغيرها.

ويلاحظ في القصص التاريخي غلبة الشخصية على الحدث، فيكون الشخص محور الحركة في القصة، أما القصص القرآني المعجز، فنرى فيه المزج التام بين الشخصية والحدث، ثم إدارة المشاهد القصصية في هذا الفلك بحيث تكون المشاهد موزعة توزيعًا محكمًا، متوازنًا بين الشخصية والحدث حرصًا من القرآن الكريم على الوحدة القصصية في صورها وأوضاعها[2].

## عنصر الحوار:

هو مستوى تبادل الآراء والأفكار والخطاب بين مختلف شخصيات البنية القصصية، ويقدم عادة إما بفعل قال أو بأحد الأفعال ذات الحقل المعنوي

(١) أدب القصة في القرآن، ١١٩.
(٢) القصص القرآني في منطوقه: ١٩٦٨، ص ٤٢ – ٤٣.

المشترك مثل: (حدث، رد، أردف، تكلم،...)، والحق إن هذه القضية مسرحية في أساسها، حيث تمكن الشخصيات من تبادل الأفكار، وتفضي الحيوية على النص، والحوار كما نعرف جميعاً هو حديث البطل مع غيره، وحديثه مع نفسه. ومن البيّن أن هذا العنصر يجسّم حيوية القصة بأعلى درجاتها ما دام (الكلام) مع الغير أو مع النفس هو المفصح عن دوافع الشخصية ورغباتها، عن صراعها وهدوئها، بل إن (الكلام) قد يحسم مصير الفرد أو الجمهور أو الأمّة.

وبالرغم من أن (السرد) الذي يعني (قص) الأحداث والمواقف ونقلها إلى الآخرين، بمقدوره أن يكشف عن أعماق الشخصية، إلاّ أنه لا تتوفر فيه إمكانات الحوار، لجملة من الأسباب، منها: إنّ ترك الشخص يتحدث بنفسه يظل أشدّ حيوية من نقل كلامه. كما أن ما لديه من (أفكار) لا يستطيع المتلقي تعرّفها ما لم يعلن الشخص ذلك بنفسه، فضلاً عن أن بعض (الأسرار) لا يمكن التحدث عنها حتى بلسان البطل، بل يظل متحدثاً بها مع نفسه، وهذا ما يتطلبه أحد شكلي الحوار ونعني (الحوار الداخلي).كما أن هناك (حالات) خاصة يستدعيها (التداعي الذهني) والتي ينتقل من خلالها الذهن من موضوع لآخر، تربطه علاقات (التشابه) أو علاقات لا شعورية، يتداعي الذهن إليها دون أن ينتبه الشخص إلى مغزى ذلك، ولذلك نجد أن القصة الحديثة تلجأ في كثير من نماذجها إلى ترك البطل (يتداعى) بذهنه إلى موضوعات لا علاقة ظاهرية بينها، فيما يستثمر القاص هذه الخصيصة لطرح مختلف (الأفكار) التي يستهدفها.

إن (القصة القرآنية) تعتمد عنصر (الحوار) بأشكاله المتنوعة التي يستدعيها هذا الموقف أو ذاك، مع ملاحظة أن الفارق بين القصص الأخرى، وقصص القرآن، يتحدد بوضوح من حيث معرفة ما في الصدور، وامتناع ذلك عند القاص الآخر، الأمر الذي يجعل لعنصر (السرد) في كشفه عن الأعماق نفس (الفاعلية)

الموجودة في (الحوار)[1]. بيد أن القصة القرآنية على الرغم من ذلك -تدع البطل يتحدث مع غيره، أو مع نفسه بغية توفير عنصر (الإقناع) من جانب، وتحقيق المتعة الفنية التي يتطلبها شكل القصة من جانب آخر.

ومن الواجب هنا أن نوضح بأن (الحوار) القرآني يتخذ – كما قلنا - أشكالا متنوعة، بعضها متوافر في القصة البشرية، وبعضها الآخر غير متوافر فيها، فهناك الحوار الخارجي متمثلا في محادثة الشخص مع آخر أو مع مجموعة، وهناك الحوار الجمعي المبهم، وهناك الحوار المحدد، فضلا عن (حوار) خاص مع (الله)، وحوار مع (النفس)، ومجرد (التفكير) يأخذ سمة الحوار، فضلا عن (الحوار) مع الأجناس غير البشرية، نهاية إن (الموقف) هو الذي يحدد نمط (الحوار) الذي تستخدمه القصة القرآنية.

## عنصر الزمن:

تعني البنية الزمانية أساسًا بدراسة العلاقات القائمة بين زمن المدلول وزمن الدال، بين زمن القصة التي وقعت بالفعل وزمن السرد الذي يعيد صياغتها، تركيزًا على أحداث وتركًا لأحداث، تبعًا لأهمية بعضها أو عدم أهميته، و إذا كان زمن القصة تاريخيًّا ، بمعنى أنه يخضع للتتابع المنطقي للأحداث وفقًا لتسلسلها الزمني ، فإن زمن السرد لايخضع لأي قيد من ذلك ، مما يؤدي إلى حدوث مايسمى بالمفارقات الزمنية، وهذه المفارقات قد تكون بدورها استباقًا لأحداث لاحقة أو استرجاعًا لأحداث ماضية[2].

على ذلك فإن الزمان يشكل عنصرًا أساسيًّا ومحوريًّا في نطاق الكتابات الأدبية بصفة عامة، والروائية بصفة خاصة، ذلك أن كل حدث لا بد له من زمن، وهناك محاور أساسية، يلجأ إليها النقاد عند تحليل زمان القص، منها تحليل أنواع

(١) أدب القصة في القرآن، ص ٢٣٢.

(٢) محمد مشرف خضر : تحولات الفكر النقدي في القرن العشرين، ص ١٠٣.

الزمان المذكورة في النص أي طريقة التعبير عن الظروف الزمانية، بما فيها الأفعال والمفعولات وأسماء الزمان والتواريخ.

والزمن عامل أساسي يربط أي نص بالخارج حيث يضفي على النص صبغة واقعية، وللقرآن منهج خاص في عرض التاريخ، وتصوير الأحداث التي وقعت في الزمن الماضي فنراه مثلا، إذا أورد قصة من الزمن الماضي لا يذكر لنا في أي سنة بدأت أحداث هذه القصة، ولا في أي سنة انتهت، ونراه كذلك لا يذكر ترتيبها الزمني في التاريخ، بمعنى أنه لا يحدد زمان القصة بألف أو ألفين قبل الميلاد، أو بعده أو قبل البعثة، أو نحو ذلك، وسبب ذلك أن النص على الزمن الذي وقعت فيه أحداث القصة القرآنية لا يضيف شيئا إلى عبرة القصة ومغزاها[1].

ولعنصر الزمن دور مهم في بنية النص أو السرد، وهي القضية الحديثة التي أفادها بعض الروائيين حيث التراوح والتبادل بين آليتي (السابقة واللاحقة) حيث يقوم الراوي بإيقاف السرد في الحاضر، وأن يرجع بذاكرته إلى أحداث وقعت في الماضي البعيد أو القريب في شكل ذكريات أو خواطر أو تداعيات حيث التقافز بين الحاضر والماضي والمستقبل مستخدمًا العديد من التقنيات السردية المبنية على الزمن مثل الاستباق والاسترجاع والحذف والوقفة الوصفية وغيرها.

لقد أعطى القرآن الكريم للزمن وتنظيمه قيمة كبيرة، وحرص كل الحرص على التصريح بكل جزيئة من جزيئات الزمن التي تساعد في توضيح الحدث أو القصة معرفة واعتبارا، فالعنصر الزمني يظهر حيث يتطلبه الموقف، ويستدعيه المقام لإخراج الحدث في صورة تقرب المشهد وتجليه وتكشف مراميه؛ ليكون له مكانه الملحوظ في سير أحداث القصة[2]، فها هم إخوة يوسف وقد نفذوا مكرهم به، يعجزون عن مواجهة أبيهم في ضوء النهار، خشية افتضاح إمارات

(١) جماليات المضمون والشكل في الإعجاز القرآني، د محمد الصاوي الجويني، منشورات منشأة المعارف، الإسكندرية، مطبعة أطلس، القاهرة، ١٩٨٣م، ص ٢١، ٢٢.

(٢) أدب القصة في القرآن، ص ٢٥٦.

الجريمة على وجوههم؛ لذلك أفصح القرآن لنا زمن المواجهة بهذه الفاجعة ليعقوب عليه السلام بقوله تعالى:﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ(١٦)﴾[١]، وقد حرص القرآن على ذلك الزمن الذي دبرت فيه الجريمة وهو العشاء، هذا الجزء من الليل الذي تستر إخوة يوسف بظلامه لحبك مؤامرتهم و إنجاز مكيدتهم[٢].

إذ فذكر الزمن في القرآن يكون مرتبطا بالهدف، وهو العبرة دون اقتصار على مجرد المعرفة التاريخية، فقوله تعالى:﴿ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ(٣٥)﴾[٣]، وقوله:﴿فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾[٤]، يدل على أن هذه المحنة (محنة السجن) مع امتدادها لم تنل من إيمان نبينا يوسف عليه السلام، ولم تزعزع من ثقته بربه ورضاه بحكمه؛ فلقد كان في سجنه داعية إلى الله بين أصحابه المسجونين، يكشف لهم الطريق إلى الخالق جل علاه، ويجلي عن قلوبهم ظلم الضلال والزيغ والكفر، فهذه الجزيئية من الزمن لها دلالتها العظيمة في الكشف عن معدن هذا النبي، وما في نفسه من إيمان قوي بالله، ولو افتقدنا هذا الزمن لافتقدنا هذا الإحساس وتلك المشاعر، وهذا التعاطف بيننا وبين هذا النبي وما في نفسه من رصيد عظيم من الصبر والإيمان[٥].

الملاحظ في هاتين الآيتين أنه قال:(حتى حين) ثم قال (بضع سنين)، أي: لم يحدد المدة التي مكثها في السجن على الرغم من أهميتها، ومما لا شك فيه أن عدم التحديد يزيد من الشعور والإحساس بذلك الظلم الفادح الذي وقع على يوسف عليه السلام، كما يشعر بفساد نظام الحكم حتى أن البريء يمكن أن

(١) سورة يوسف، الآية ١٦.
(٢) سيكولوجية القصة في القرآن، ص ٣٤٩، ينظر الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، د/ محمد محمود حجازي، مطبعة المدني، ١٣٩٠ هـ، ١٩٧٠م، ص ٣١٢.
(٣) سورة يوسف، الآية ٣٥.
(٤) سورة يوسف، الآية ٤٢.
(٥) القصص القرآني في مفهومه، ص ٨٧ – ٨٨.

يبقى في ظل هذا الفساد سجينًا مدة لا حساب للزمن فيها، وإنما الحساب للسلطة المستبدة التي تدفعها أهواؤها إلى الزج بالأبرياء في غياهب السجن[١].

وإذا كان القرآن الكريم لم يحدد الزمن وعبر عنه بـ (حين) تارة، و(بضع سنين) تارة أخرى، فإنا نرى في قوله تعالى، وعلى لسان يوسف عليه السلام ﴿تَزْرَعُونَ....يَعْصِرُونَ﴾[٢]، أنه لم يقل تزرعون حينا، ولا تزرعون بضع سنين؛ لأنه لا مجال لإشعار بالظلم الفادح الذي تعرض له يوسف عليه السلام، وإنما المجال مجال تخطيط اقتصادي، ومجال إنقاذ للشعب من المجاعة المنتظرة التي أرهصت بها رؤيا الملك، وفسرها يوسف عليه السلام، ومن هنا ارتبط ذكر الزمن بهذا المجال، ورأينا في هذه الآيات ثلاث مراحل زمنية محددة، فكل من الأولى والثانية محددة بسبع سنين، أما المرحلة الثالثة فعام واحد[٣].

وبذلك جمعت قصة يوسف عليه السلام وهي الأنموذج الإعجازي الكامل للأداء القصصي بين أمرين زمانيين متقابلين أمر زماني مبهم يرتبط إغفال الزمان فيه بالفساد والظلم، وأمر زماني واضح يرتبط تحديد الزمان فيه بالإصلاح والتخطيط[٤].

إن مجيء القصة بهذه الصورة يثبت أن القرآن الكريم كان هو الرائد السباق إلى ذلك اللون القصصي الذي نراه عند بعض الأدباء القاصين المغرمين بتحريك الزمن في اتجاه غير الاتجاه الطبيعي، فترى الواحد منهم يبدأ الحديث القصصي من نهايته، ويعرضه في الشكل الذي انتهى إليه، ثم يعود فيطلع به من جديد من أول خطواته، والغاية في ذلك هي إثارة شوق القارئ له في سيرة مع الأحداث، ويخطو معها خطوة خطوة ومرحلة مرحلة[٥].

(١) أدب القصة في القرآن الكريم، ص ٢٦٣.
(٢) سورة يوسف، الآية ٤٧-٤٩.
(٣) أدب القصة في القرآن الكريم، ص ٢٦٤.
(٤) المصدر نفسه، ٢٦٤.
(٥) القصص القرآني في منظومة ومفهومه، ص ٨٩.

ويبدو على هذا أن الزمن في القصص القرآني له قيمة كبرى لا من حيث التاريخ الزمني للقصة؛ لأن القرآن الكريم لا يحفل بذلك؛ لأنه لا يضيف شيئًا جديدًا إلى المقصود من القصة، ولكن من حيث الوضع الخاص للزمن ذلك الوضع الذي يؤثر في الحدث أو يبرز ملامحه، أو يقيم شواهد العبرة والعظة منه، فيلتفت إليه القرآن، ويذكره صراحة في قصصه، حتى لا تفتقد القصة ذلك اللون الخاص من الزمن، إذا هي لم ترد في صحبته ولم تتلبس به، وقد استخدم الأسلوب الغيبي في سائر الأنباء التي قصها، وكان الزمن الماضي البعيد الموغل في القدم نصرا أصيلا بارزا من عناصر الإعجاز الغيبي فيه[1].

## عنصر المكان:

لا يعيش المكان منعزلًا عن باقي عناصر السرد، وإنما يدخل في علاقات متعددة مع المكونات الحكائية الأخرى للسرد، فالشخصيات والأحداث والرؤيات السردية.. وعدم النظر إليه ضمن هذه العلاقات والصلات التي يقيمها يجعل من العسير فهم الدور النصي الذي ينهض به المكان داخل السرد[2] .

لا خلاف في أن مكان القص في القصص القرآني هو مكان واقعي مجرد، والقصد أنه يجب عدم الخلط عند دراسة أي نص أدبي بين المكان الواقعي والمكان الذي يكون النص نفسه، فالمكان الأول خارجي لا صلة له بالكتابة إلا من ناحية المرجعية، أما الثاني فهو بناء داخلي بحت يرتبط وجوده بالكلمات والتعابير والمعطيات المكانية.

حينما ننظر إلى القصص القرآني المعجز من الزاوية المكانية فيه نجد أن القرآن الكريم ينظر إلى المكان على النحو الذي ينظر به إلى الزمان، فهو لا يعني بذكر أسماء الأماكن ومواصفاتها إلا إذا كان لها وضع خاص يؤثر في سير

(١) المصدر السابق، ص ٨٩.

(٢) حسن بحراوي: بنية الشكل الروائي، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ص ٢٦.

الحدث، أو يبرز ملامحه، أو يقم شواهد العظة والعبرة منه، وفي هذا يلتزم القرآن الكريم بذكر أسماء الأماكن ومواصفاتها، وذلك في بيان الغرض المقصود من القصة، وتهب منه على الحدث سمات وأشعة، ويكون ذا قيمة نفسية و روحية عظيمة تفتقدهما الحادثة إذا هي لم تجئ في صحبة المكان المنصوص على اسمه ولم تلبس به[١].

وفي قصة يوسف عليه السلام ذكر المكان عندما احتيج إلى أثره المباشر في نمو الحدث من ذلك الجب لأثره في محنة يوسف، وتسخير الله من أنقذه منه[٢]، كما ذكر (مصر) ليشعرنا بتلك الغربة التي سيكابدها يوسف عليه السلام بعيدا عن بلده فضلًا عن كونها مسرحًا للأحداث التي نمت من خلاله.

وذكر بيت العزيز الذي تعرض فيه لأصعب محنة مع امرأة العزيز، والسجن الذي تبين فيه إيمان يوسف وصبره وشخصيته المستعلية على الشهوة، والداعية إلى عقيدة التوحيد، والعرش الذي دل على منصب يوسف عليه السلام، والبادية وهي المكان الذي كان فيه يعقوب وبنوه بدوا يتنقلون فيه، ويعانون من شغف العيش الأمر الذي يدفعهم على الذهاب لمصر، وطلبهم إيفاء الكيل والتصدق عليهم[٣].

وذكر مصر هذا البلد باسمه صراحة غير مرة كان أمرًا ضروريًّا لكونه مسرحًا لأغلب أحداث القصة، ولتكريم الله تعالى له، ففيه ولد موسى عليه السلام، ونشأ وسعى لنشر رسالة التوحيد، وبه احتمى عيسى وأمه، ومن قبل ذلك جاءه إبراهيم الخليل عليه السلام من أقصى الشرق، ومن ثم جاء من بعده يوسف فإخوته فيعقوب عليه السلام[٤]، وقد يحسب البعض أنه إذا سقط اسم مصر من

(١) السابق، ص ٩٥، ٩٦.
(٢) البنى والدلالات في لغة القصص القرآني، ص ٣٣٦.
(٣) المصدر نفسه ص ٣٣٦.
(٤) أدب القصة في القرآن الكريم، ص ٢٨٣.

هذه القصة لما نقص من مضمونها شيء، ولكن الأمر على خلاف ذلك فذكرها كان لا بد منه إذ دارت أغلب الأحداث ابتداء من بيع يوسف واسترقاقه حيث يقول تعالى: ﴿**وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ [يوسف:٢١] إلى آخر أحداث القصة ومجيء يعقوب عليه السلام وبنيه واستقرارهم بها[١]، وفي هذا يقول تعالى: ﴿**فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ**﴾ [يوسف:٩٩]، وأخيرًا فإن للمكان قوة عاملة في تشكيل الأحداث، وإبراز معالمها حينما يكون له طبيعة خاصة يتأثر بها الحدث، ولا يقع له هذا التأثير في مكان آخر[٢].

إن القصص القرآني خال من التخييل، القرآن الكريم قد بلغ قمة الإعجاز في سرد القصة وتصويرها دون أن يكون للخيال أي دور فيه، وصدقها و واقعيتها الأصلية التي استوحتها من قداسة القرآن، وتنزيهه لم ينف فنيتها على الإطلاق.

(١) السابق، ص ٢٨٤.

(٢) القصص القرآني في منطوقة ومفهومه، ص ٩٤.